كلمات صوفية

• قال رجل لإبراهيم بن أدهم : قال الله عز وجل : « أدعونى أستجب لكم » فما لنا ندعو فلا يستجاب لنا ؟

قال : من أجل خمسة أشياء ، قيل : وما هى ؟ قال : عرفتم الله فلم تؤدوا حقه ، وقرأتم القرآن فلم تعملوا بما فيه ، وقلتم نحب الرسول وتركتم سنته ، وقلتم نلعن إبليس وأطعتموه ، والخامسة تركتم عيوبكم وأخذتم فى عيوب الناس .

• سئل أبو الحسن النورى عن التصوف ، فقال : ليس التصوف رسوماً ولا علوماً ، ولكنه أخلاق .

• يقول الصوفية : حقيقة الذكر أن تنسى ماسوى المذكور فى الذكر ، لقوله تعالى : « واذكر ربك إذا نسيت » يعنى إذا نسيت ماسوى الله فقد ذكرت الله .

ويقول الحلاج : الذكر طرد الغفلة فإذا ارتفعت الغفلة فأنت ذاكر وإن سكت .

• قال الجنيد : الزهد خلو القلوب من التتبع ، وقال مسروق : الزاهد الذى لا يملكه مع الله سبب ، وسئل الشبلى عن الزهد ، فقال : فى ماذا ؟ فى أقل من جناح بعوضة ؟ !!

• يقول إبراهيم الدسوقى : « لا يكمل الصوفى حتى يكون محباً للناس ، مشفقاً عليهم ، ساتراً لعوراتهم ، قائماً بحاجاتهم ، فإن ادعى الكمال وهو على خلاف ذلك فهو كاذب .

• يقول الحلاج : « إذا ألف القلب الإعراض عن الله تعالى ، أورثه الوقيعة فى أولياء الله تعالى .

الحقيقة المحمدية والعلم الحديث

مقام محمد ، وقمة المعراج ، ونور الله

للأستاذ حسنى طه شكيبانه

٣

ذلكم الوجود ... وهذا محمد وكتابه ...

ذلكم الوجود كون يتعرف على مكوّنه الأعظم .

ومحمد روح هذا الكون ، وكتابه نبراسه الهادى ... إلى الله رب العالمين :

قال رب الكون عن محمد وكتابه : « وما أرسلناك إلى رحمة للعالمين ... » ، « وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ، ولكن جعلناه نوراً نهدى به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدى إلى صراط مستقيم ... صراط الله ... الذى له ملك السموات والأرض الا إلى الله تصير الأمور » .

فلا جرم يكون مقام رحمة العالمين قمة الوجود وروح الموجود المتخلل فى أعماقه ولا جرم يكون كتابه النور الهادى إلى رب الوجود العظيم .

ولا جرم يكون الإسراء والمعراج كشفاً للغطاء عن الحقيقة القائمة بكيان محمد الكريم ؛ فكيانه رحمة الوجود وقمته ، كشف الغطاء ، أم لم يكشف ...

ولنحاول بسط هذه القضية فى أسلوب منطقى لمن أراد أن يذكر أو أراد شكوراً .

إن صفحات الوجود أربع تتحدث عن الخلاق الأعظم بأروع بيان وأجل حكمة صفحة الأرض والسماء وما فيهما ومن فيهما قائمة فى ملك ظاهر وملكوت خفى .. فيما نعلم ...

وصفحة الحياة فى كائنات اتخذت أجل مظهر لها فى الإنسان سيد الكائنات فيما نعلم . . .

وصفحة القيادة نحو رب الوجود عوداً به إلى مصدره ، ودلالة له على رب نعمته فى كيان محمد أكمل قائد فيما نعلم . . .

وصفحة الحكمة الهادية ، والبيان الرائع الذى يرسم الطريق إلى رب الوجود فى آيات القرآن الكريم أجل كتاب فيما نعلم ويعلم الوجود . . .

صفحة الكون ورب الكون . . .

لقد كان الله العظيم ولا شيء معه ، فأحبت ذاته أن تعلن عن صفات جلالها وجمالها وأن تقدس ذاته ، وتحمد صفاته ، فخلق الكون صورة رائعة من حكمته ، وصفحة ناطقة بجلال وجهه وعظيم سلطانه وبالغ أمره . . .

كون متلاطم لا تدرك جوانبه ، ولا يحاط بأسرار ، وتنبهر له أكبر العقول من أصغر ذرة فيه إلى أكبر مجرة فى فضائه ، مسخر أتم نظام ، وأدق صورة فى أسلوب واحد متناسق من ذرته لمجرته ، مودع فيه من الطاقات ما يحير الفكر البشرى كله من أصغر هباءة لا ترى . . إلى أكبر سديم لا يدرك . . .

فلا جرم تكون صفة هذا الكون دلالة جليلة على القدرة التى سطرتها على أبدع نظام ، ناطقة بصورة هذه الربانية المبدعة . . .

« قل : لمن الأرض ومن فيها ؟ . . إن كنتم تعلمون . . سيقولون لله . . قل أفلا تذكرون .

« قل مَنْ رب السموات السبع ورب العرش العظيم . . سيقولون لله . . قل أفلا تتقون » .

« قل مَنْ بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون . . سيقولون لله . . . » .

« ومن آياته خلق السموات والأرض وما بث فيهما من دابة . . . » .

وصدق الحكيم القائل : وفى كل شيء له آية . . تدل على أنه الواحد .

فتبارك الله أحسن الخالقين . . وتبارك الله رب العالمين . . .

والكون العظيم الذى رأيناه من قبل فى أرض وسموات إنما هو مسخر لحياة - ومجال لتفكير ، ومحراب لعبادة . . .

والحياة حيوات . . أجلها وأروعها فيما نعلم — حياة الإنسان — خليفة الله الأكبر فى أرضه ، ومخلوق الرب لذاته ، وضيف الكريم فى جناته . . .

وحياة الإنسان صفحة الخلاق الجامعة لأسرار الوجود . . ظهرت واستترت ، ظهرت كياناً من الطين مشرقاً جامعاً لعناصر الكون . . .

وبطنت فى عقل يزن الوجود ، ونفس تنجذب لأعماق الوجود فتشعر به وروح هى سر الوجود ونور الوجود . . .

فإذا كانت كائنات علوية قد استترت . . أو فى المادة — جنت واختفت (وهو كذلك) فإنسان الأرض أجل من هذه قدراً ومن تلك ؛ لأنه الكيان الذى ظهر وبطن . . . وفى ظهوره جمال . . وفى بطونه روعة وجلال . . .

فهو بذلك من أروع صفحات الخلاق الدالة على صفات قدرته ، وبالغ حكمته ، وجليل قدره ، تقرأ فيها كل المقول مقالة الرب الأكرم :

« إنى جاعل فى الأرض خليفة : . . » لتعلم أنه المراد دون سواه ممن ظهر أو بطن فهو الخليفة الأكبر عن الله العظيم فى عمار الوجود وحضارته . . . أو تقرأ :

« جنات عدن يدخلونها ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم ، والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار » .

« يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون » . لتعلم أنه الضيف الأول فى دار كرامة الله ورضوانه . . .

ومن هنا سخر له الكون فى الدنيا : « وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه . . . إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » .

سُخِّر له ملائكة الكون الأعلون . . وجنُّ الأرض العاقلون ، مردة وصالحين « تكاد السموات يتفطرن من فوقهن والملائكة يسبحن بحمد ربهم ويستغفرون

لمن فى الأرض ...» ، « له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله ..» أو « ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ، ومن يزغ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير ، يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل وجفان كالجواب وقدور راسيات . . اعملوا آل داود شكراً ..» ، « ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكنا لهم حافظين » ، « هـذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » . أما سر ذلك ففى قول الخلاق العظيم عن الإنسان « فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ؛ فسجد الملائكة كلهم أجمعون ...» .

ومن قبس الحق فيه كان خليفة أكبر ، وكان صفحة رائعة لرب الوجود ناطقة بعظمة رب الوجود ، ولأمر ما قال حكيم الصوفية على بن أبى طالب (كرم الله وجهه) :

وتزعم أنك جرم صغير ... وفيك انطوى العالم الأكبر ...

وقال الصوفية الكرام : ما ظهر الله فى شىء كظهوره فى الإنسان ..» ففيه التقت تجليات الحق وصفاته ... فتبارك الله أحسن الخالقين ...

صفوة الكمال الحى وقيادة الحياة لرب الحياة :

والكون المسخر ، والحيوات المسبحة بحمد خلاقها ، المقدسة لذاته تعالى لا تعرف قائداً أجل من محمد الكريم فهو مثال الكمال الحى القائد لجميع الحيوات فى معراج الرقى نحو الخلاق العظيم ..

فهو وإن كان صورة من كتاب الحياة . . إلا أنه اختص بنورانية هذه الحياة فجاء عنواناً على رب الحياة ، ومظهراً أجل لرحمانيته البالغة . .

فهو نموذج الكمال فى خلق وفى تفكير ، وفى علم وفى عمل ، وفى نفع وفى إصلاح وجاء صاحب أروع رسالة هادية إلى رب الوجود . . .

ولهذا — وغيره — كان مظهراً للقدرة الربانية فى فعل وتدبير :

إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . . .

وللحكمة الربانية فى قضاء وتقدير : « فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك

فيما شجر بينهم ، ثم لا يجدوا فى أنفسهم حرجاً مما قضيت ، ويسلموا تسليما .

والنور الربانى فى هداية وقيادة ، ودعوة :

يأيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً ، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً

ثم جاء يحمل صورة الأمر الربانى تنفيذاً وسلطانا :

« من يطع الرسول فقد أطاع الله » .

ويحمل الحب الإلهى تقرباً واقتداء : « قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله » . فأصبح لهذا صورة للرحمة المحيطة بالوجود ، المتخللة لكل الوجود ، الرائدة لكل الوجود . . قال تعالى :

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . . . » ، « وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » وقال عن نفسه : « إنما أنا رحمة مهداة . . . إنما أنا قاسم والله يعطى . . . » وكما حمل لواء القيادة فى الدنيا . . حمل لواء القيادة فى الآخرة للوجود وللنبيين « لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرا » ، « فكيف إذا جئنا من أمة بشهيد ، وجئنا بك على هؤلاء شهيداً » ، « ويوم نبعث فى كل شهيداً عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء ، ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين » .

وفى ذلك يقول هو :

« أنا أول الأنبيـــاء خروجاً إذا بعثوا ، وأنا خطيبهم إذا وفدوا .

لواء الحمد يومئذ بيدى ، وأنا أكرم ولد آدم على ربى ولا فخر » .

أو قوله : « أنا سيد ولد آدم يوم القيامة ولا فخر » .

بل هو صاحب ذلك المقام منذ بدء الوجود . . صورة . . ومنذ الأزل فى علم رب الوجود واصطفائه . . حقيقة . . قال تعالى : « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ، ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمن به ولتنصرنه . . قال : أأقررتم وأخذتم على ذلكم إصرى ؟ . قالوا : أقررنا . . قال : فاشهدوا . . وأنا معكم من الشاهدين .

فإذا كان الوجود مظهراً لقدرة الله

وإذا كانت الحياة مظهراً لحكمة الله . . .

فقد جاء محمد بأمر الله سر هذه الحياة ورحمتها . . وفائدها وكمالها : وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين . . » ، « وداعيا إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً » .

ومن هذا كان أعلم كائن بصفات الله العظيم وأجلهم منه قربا . . قال تعالى : وأنزل عليك الكتاب والحكمة ، وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما.

وقال : « إنما يخشى الله من عباده العلماء . . . وقال : « شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط . . لا إله إلا هو العزيز الحكيم » . « واتقوا الله ويعلمكم الله » .

وقال هو نفسه : « أنا أعلمكم بالله » . . . « أنا أخشاكم لله وأتقاكم له » .

ومن هنا كان صاحب الإسم الثانى فى كل الوجود . . منطلقاً فى كل الوجود :

قال تعالى : « ورفعنا لك ذكرك . . . » فما يذكر الله فى عبادة وصلاة مرفوعة إليه من أهل الأرض أو من أهل السموات حتى يذكر معه حبيبه محمد . . . فى أذان وإقامة . . الله أكبر الله أكبر . . . أشهد إلا إله إلا الله . . أشهد أن محمداً رسول الله . . .

وفى ختام صلاة : التحيات لله ، والصلوات والطيبات لله . السلام عليك أيها النبى ورحمة الله وبركاته . . . السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين . . أشهد ألا إله إلا الله وأشهد أن محمداً عبده ورسوله . .

اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد كما صليت على ابراهيم وعلى آل ابراهيم ، وبارك على محمد وعلى آل محمد كما باركت على آل ابراهيم فى العالمين إنك حميد مجيد » .

وفى وسط الصلاة حين يمجدون اسم الله واسم رسوله . مثل : محمد رسول الله والذين معه . . « . . . ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله ، وقالوا : حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله . . إنا إلى الله راغبون . . » ، « . . . وما نقموا إلا أن أغناهم الله ورسوله من فضله . . . » . « هو الذى أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيداً » .

فلا جرم يكون مظهر الحق والرحمة فى كل الوجود : « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله . . . » .

مقام محمد فى قمة المعراج . . .

فإذا قال الصوفية الكرام — أصحاب البصائر — إن إسراء رسول الله الكريم من مكة إلى بيت المقدس حيث صلى بالأنبياء فى كوكب تكريم الملك وإن معراج رسول الله حيث بلغ سدرة المنتهى فى موكب تكريم الملكوت ثم ما فوقها إلى مقام قاب قوسين أو أدنى حيث تجلى عليه ربه فأراه من آياته الكبرى ، فما زاغ بصره وما طغى وما كذب فؤاده ما رأى . . . إذ قالوا : إن ذلك تم لرسول الله العظيم فى أتم يقظة ، وأبلغ إدراك ، وأجل معرفة ، وإحاطة بكيانه كله . . : —

فما بعدوا عن الحقيقة . . وما جاءوا بجديد غير أنهم كشفوا الحجب عن العقول بنور توفيق ألا لترى حقيقة الكيان المحمدى فى كل الوجود من حكمة رب الوجود فى كتابه العظيم :

فالكون صنعه الله للإنسان ، والإنسان صنعه الله لذاته ، ومحمد رحمة الله الكبرى للكون وللإنسان ولكل الحيوات . . فمقامه من فوق الوجود . . من الفراش إلى العرش . . . .

ليرى من آيات ربه الكبرى . . فهو أجل عليم بالله . . « أنا أعلمكم بالله » . وأقرب كائن إلى الله فهو صورة من صورته وقدرته :

« وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى . . » ، « ثم دنا فتدلى فكان قاب قوسين أو أدنى » . « إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله » فإن علم أو أبصر فبجماع ذاته يدرك : « ما كذب الفؤاد ما رأى . . ما زاغ البصر وما طغى . . . ليريه من آياته إنه هو السميع البصير » . وما يحجب عن النور الذاتى وهو شعاعه الهادى إليه ولذلك قال عند ما سئل أرأيت ربك . . قال : « رأيت نوراً . . . » . فاللهم أكرمنا بنور محبتك وقربك . والصلاة والسلام على حبيب الرحمن فى ذكرى إسرائه ومعراجه الكريم .

فمعراجه قائم فى كيانه المحيط بالوجود رحمة من ربه . . . الهادى للوجود إلى الله بإذن ربه . . وإنما كشفت الآيات الكريمة لمن أراد عن بعض الكيان المحمدى فى حضرة الرب الأعظم .